الشيخ تقي الدين عثمان بن الصَّلاح رحمه الله يثني عليه بعد مَوْته في معرفة الحديث، ويتأسَّف لفقده على فوائِدَ كانت تحصل من عنده.

قال أبو المُظَفَّر: سَمِعَ الكثير، ولقي الشيوخ، وكانت وفاته بدمشق، ودُفِنَ بمقابر الصُّوفية في طريق المُنَيْبع، وصلَّى عليه الموفق الحنبلي بجامع دمشق، والفخر ابن عساكر بباب النَّصر، والجمال المِصْري قاضي القضاة عند قبره، وكان سَمِعَ بمصر من البُوصيري، وابن المقدسي، وبدمشق من بركات بن إبراهيم الخُشُوعي، ورحل إلى العراق، فسمع أبا الفتح بن المَنْدَائي؛ وابن عبد السَّميع الهاشمي، وابن طَبَرْزَد، وابن سُكينة، وابن الأخضر، وحنبلاً. وقرأ على الشيخ تاج الدين الكِنْدي بدمشق «تاريخ» الخطيب، و«طبقات» ابن سَعْد، وشيئاً كثيراً، وكان ثِقَةً[1].

قلت: وقرأ على القاضي جمال الدين أبي القاسم بن الحَرَسْتاني من كُتُبِ البيهقي كثيراً مثل «السُّنَن الكبير» و«معرفة السُّنَن والآثار»، و«دلائل النبوَّة»، و«الآداب»، و«الدَّعَوات».

ثم دخلت سنة تسع عشرة وست مئة

ففيها ظهر بالشَّام جَرَادٌ كثير لم يُعهد مثله، فأكل الزَّرْعَ والشَّجَر والثمر، فأظْهَرَ المعظمُ أن ببلاد العَجَم طيراً يقال له السمرمر يأكلُ الجَرَاد، فأرسل الصَّدْرَ البكري محتسب دمشق، ورَتَّب معه صوفية، وقال: تمضي إلى العَجَم، فهناك عينٌ يجتمع فيها السمرمر، فتأخذ من مائها في قوارير، وتعلِّقه على رؤوس الرِّماح، فكلما رآه السمرمر تَبِعَك، وما كان مقصوده إلا أن يبعث البكري إلى جلال الدِّين خوارزم شاه ليتفق معه لما بلغه اتفاق أخويه الكامل والأشرف عليه، فاجتمع البكري بالخوارزمي، وقررَّ معه الأمور، وجعله سَنَداً

---

(١) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٨ هـ).

له. وكان الجراد قد قَلَّ، فلما عاد البكري كَثُرَ الجراد، وقال الناس في ذلك أشعاراً، وظهر فِعْلُ المعظَّم للنَّاس، وعَلِمَ الكاملُ والأشرف، وشاع الحديث،
١٣٢ فقيل للمعظم: لو كنتَ بعثتَ رسالةً مع بعض التُّجَّار الذين يسافرون إلى خُرَاسان كان أَوْلى. ولما عاد البكري من الرِّسالة ولاه المُعَظَّم مشيخةَ الشُّيوخ مضافةً إلى الحِسْبة.

وفيها حَجَّ من العراق ابنُ أبي فراس مستقلاً، ومن الشَّام كريمُ الدِّين الخِلاطي، ومعه الرُّكْن الفَلَكي، وخَلْقٌ كثير، وكانت وقفة الجمعة، وازدحم النَّاس في المسعى، فمات جماعة.

قال أبو المظفر: وكنتُ على عَزْمِ الحجِّ، فخرجتُ على هجينٍ إلى مسجد القَدَم، فجاء حورانيٌّ عليه فَرْوَةٌ ليصافحني، فَنَفَرَ بيَ الهجينُ، [فرماني](١)، فأقمتُ شهرين أداوي ظهري.

وحَجَّ بالنَّاس من اليمن أقسيس بن الكامل، ولقبه الملك المسعود في عسكر عظيم، فجاء إلى الجبل وقد لَبِسَ هو وأصحابُهُ السِّلاح، ومَنَعَ عَلَمَ الخليفة أن يُصْعَدَ به إلى الجبل، وأصعد عَلَمَ أبيه الكامل وعَلَمَه، وقال لأصحابه: إنْ أطلعَ البغاددة عَلَمَ الخليفة فاكسروه، وانهبوهم. ووقفوا تحت الجبل من الظُّهْر إلى غروب الشمس يضربون الكوسات ويتعرَّضون للحاجِّ العراقي، وينادون: يا ثارات ابن المُقَدَّم(٢). فأرسلَ ابنُ أبي فراس أباه، وكان شيخاً كبيراً إلى أقسيس، وأخبره بما يجبُ من طاعة الخليفة، وما يلزمه في ذلك من الشَّناعة. فيقال: إنه أَذِنَ في صعود العَلَم قُبيل الغروب. وقيل: لم يأذن.

قال: وبدا من أقسيس في تلك السنة جبروتٌ عظيم، حكى لي شيخُنا

---

(١) ما بين حاصرتين من «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦١٩ هـ).

(٢) كان شمس الدين بن المقدم قد قتل في عرفات سنة (٥٨٣ هـ)، قتله طاشتكين أمير الحاج العراقي وقتئذٍ، انظر «كتاب الروضتين»: ٣/ ٤٢٣ ـ ٤٢٦.

جمال الدِّين الحصيري، رحمه الله، قال: رأيتُ أقسيس قد صَعِدَ على قُبَّة زمزم، وهو يرمي حَمَام مكَّة بالبُنْدُق. قال: ورأيت غِلْمانه في المسعى يضربون النَّاس بالسيوف في أرجلهم، ويقولون: اسعوا قليلاً قليلاً، فإنَّ السلطان نائمٌ سكران في دار السَّلْطنة التي في المسعى. والدَّمُ يجري من ساقات النَّاس[1].

قلتُ: واستولى أقسيس على مكَّة وأعمالها، وأَذَلَّ المفْسِدين فيها، وشتَّت شَمْلَهم، وهو بنى القُبَّة على مقام إبراهيم عليه السَّلام، وكَثُرَ الجَلَبُ إلى مكَّة من مِصْر واليمن في أيامه، فَرَخُصَتِ الأسعار، ولعِظَمِ هيبته قَلَّتِ الأشرار، وأَمِنَتِ الطُّرُق والدِّيار.

وفيها نُقِلَ تابوتُ العادل بن أيوب من قلعة دمشق إلى تُرْبته المقابلة لدار العقيقي؛ أخرجوا جِنازَتَه من القلعة، والتابوتُ مُغَشى بمرقعة، وأربابُ الدولة حوله، ومَرُّوا به على دار الحديث إلى باب البريد إلى الجامع، ووُضِعَ في صحن الجامع قُبَالة حائط النَّسْر، وصُلِّي عليه هناك، وأمَّهم في الصَّلاة عليه خطيبُ الجامع جمالُ الدِّين الدَّوْلعي، ثم حملوا الجِنازة، وخرجوا بها من باب النَّاطفانيين شمالي الجامع خوفاً من زحمة النَّاس في الطُّرق، ولم يصل إلى تربته إلا بعد جُهْدٍ لضيق السِّكك، وبقي القُرَّاء والفُقَهاء يتردَّدون إلى التربة غُدْوةً وعَشِيَّة كلَّ يوم يقرؤون القرآن إلى أن رُتِّبَ الوَقْفُ عليها، وعُيِّنَ لها قُرَّاء مخصوصون، ولم تكن المدرسة كملت عِمارَتُها.

وألقى الدَّرس فيها في هذه السنة القاضي جمال الدين المِصْري، وحَضَرَ دَرْسَه أعيانُ الشُّيوخ والقُضَاة والفقهاء، وحضر السُّلْطان الملك المُعَظَّم عيسى بن العادل، وتكلَّم في الدَّرْس مع الجماعة، وكان الاجتماعُ بإيوان المدرسة، وجلس عن يمين السُّلْطان إلى جانبه شيخُ الحنفية جمال الدين الحَصِيْري، ويليه شيخ الشَّافعية شيخُنا فخر الدِّين ابن عساكر، ثم القاضي

---

(١) مرآة الزمان (حوادث سنة ٦١٩ هـ).

شمس الدين ابن الشِّيرازي، ثم القاضي محيي الدِّين يحيى بن الزكي. وجلس عن يسار السُّلْطان إلى جانبه مدرِّس المدرسة قاضي القُضَاة جمال الدين
١٣٣ المِصْري، وإلى جانبه شيخُنا سيف الدين الآمِدِي، ثم القاضي شمس الدِّين يحيى بن سني الدولة، ثم القاضي نجم الدين خليل قاضي العسكر، ودارت حَلْقةٌ صغيرة والنَّاس وراءهم متصلون مِلْءَ الإيوان، وكان في دور تلك الحلقة أعيانُ المدرسين والفقهاء. وقُبَالةَ السُّلْطان فيها شيخُنا تقي الدين ابن الصَّلاح وغيره، وكان مجلساً جليلاً لم يقع مِثْلُه إلا في سنة ثلاثٍ وعشرين وست مئة كما سيأتي[١]، ولكن كان قد فُقِدَ من الشُّيوخ الشَّافعية أجلُّهم وأكبرهم فخرُ الدِّين ابنُ عساكر، رحمه الله.

وفيها توفي قُطْبُ الدِّين بن العادل[٢] بالفَيُّوم، ونقل إلى القاهرة[٣].

وفيها توفي إمام الحنابلة بمكة نصر بن أبي الفرج المعروف بابنِ الحُصْري[٤].

---

(١) كأن أبا شامة قد نسي ذلك، فلم يورده في حوادثها.

(٢) له ترجمة في مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٩ هـ)، التكملة للمنذري: ٣/ ٨٠، مفرج الكروب: ٣/ ٢٧٥، تاريخ الإسلام (ت ٥٩٦، وفيات سنة ٦١٩ هـ)، الوافي بالوفيات: ٧/ ٣٦١، البداية والنهاية (وفيات سنة ٦١٩ هـ)، شفاء القلوب: ٢٧٥، النجوم الزاهرة: ٦/ ٢٥٤، ترويح القلوب: ٤٩، ٥٤.

(٣) في (ك) و(ع) و(س) زيادة: قرأت على عمود قبره بتربة شمس الدولة توران شاه بن أيوب ظاهر القاهرة خارج باب النصر، أنه الملك المفضل قطب الدين أبو العباس أحمد بن الملك العادل بن أيوب، توفي يوم الثلاثاء رابع عشر رجب من السنة المذكورة، رحمه الله تعالى.
قلت: وهذه الزيادة ليست من أبي شامة، وشمس الدولة توران شاه بن أيوب، توفي بالإسكندرية سنة ٥٧٦ هـ، ونقلته شقيقته ست الشام إلى تربتها بدمشق، انظر «كتاب الروضتين»: ٣/ ٦٣ ـ ٦٥ فلعله بنى تربة بالقاهرة، فظلت تحمل اسمه، والله أعلم.

(٤) له ترجمة في مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٩ هـ)، والتكملة للمنذري: ٣/ ٦٩ ـ ٧٠، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد: ٤١٠ ـ ٤١٢، تاريخ الإسلام (ت ٦٤٣، وفيات سنة ٦١٩ هـ)، سير أعلام النبلاء: ٢٢/ ١٦٣ ـ ١٦٥، معرفة القراء الكبار: ٣/ ١١٧٦ ـ ١١٧٧، العبر للذهبي: ٥/ ٧٧،

أقام بمكة مجاوراً مُدَّة، ثم خَرَجَ إلى اليمن، فمات بالمَهْجَم، ودُفِنَ به. سمع أبا الوقت، وابن البَطِّي، وابن المقرِّب وغيرهم.

قال أبو المُظَفَّر: (١ سمعتُ منه الحديثَ بمكة في سنة أربعٍ وست مئة١)، وكان متعبِّداً لا يفتر من الطَّواف، صالحاً ثِقَةً[٢].

وفيها في ربيع الأول توفي بدمشق الشِّهاب عبدُ الكريم بنُ نجم الدين الحنبلي[٣].

أخو البهاء والنَّاصح، وهو أصغرهم، والبهاء هو الأكبر، بين كلِّ واحدٍ والذي قبلَه في الولادة تسعُ سنين، وكان الشِّهابُ أبرعَهم في الفِقْه والمناظرة والمحاكمات، بصيراً بما يجري عند القضاة في الدعاوي والبينات، لكنَّه كان تعصَّب على شيخنا أبي الحسن في إخراج مسجد الوزير المَزْدقاني من يده، وجَرَتْ أمورٌ ربما نذكر بعضها في ترجمته[٤]، رحم الله الجميع وإيانا، فهو ذو رحمةٍ واسعة.

قلتُ: وفي يوم الثلاثاء ثامن عشري رجب من هذه السنة استقلَّ القاضي جمالُ الدين أبو الفضائل يونس بن بدران بن فيروز الشافعي المعروف بالمِصْري

= المختصر المحتاج إليه: ٣/ ٢١٤ ـ ٢١٥، الوافي بالوفيات: ٢٧/ ٨٤، البداية والنهاية (وفيات سنة ٦١٩ هـ)، ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ١٣٠ ـ ١٣٢، العقد الثمين: ٧/ ٣٣٢ ـ ٣٣٥، غاية النهاية: ٢/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩، توضيح المشتبه: ٣/ ٢٤٥، النجوم الزاهرة: ٦/ ٢٥٣، المقصد الأرشد: ٣/ ٦٧ ـ ٦٨، المنهج الأحمد: ٤/ ١٤٥ ـ ١٤٦، شذرات الذهب: ٥/ ٨٣.

(١ ـ ١) ما بينهما ليس في نسخ «مرآة الزمان» التي بين يدي، وهي مختصر له كما بينتُ في مقدمته.

(٢) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٩ هـ).

(٣) له ترجمة في التكملة للمنذري: ٣/ ٧١، تاريخ الإسلام (ت ٦١٣، وفيات سنة ٦١٩ هـ)، البداية والنهاية (وفيات سنة ٦١٩ هـ)، ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ١٣٢ـ١٣٣، المقصد الأرشد: ٢/ ١٩٢، الدارس: ٢/ ٧١، المنهج الأحمد: ٤/ ١٤٧، القلائد الجوهرية: ٢/ ٤٢٧، ٤٦٤ـ٤٦٥، شذرات الذهب: ٥/ ٨٥، وانظر ص ٣٧ من الجزء الثاني.

(٤) آثر أبو شامة الصمت، فلم يذكر في ترجمة السخاوي شيئاً من ذلك.

بالقضاء في دمشق وما معها من البلاد الشَّامية، وصار يدعى قاضي القضاة، وقد تقدَّم ذكره في سنة ست عشرة وست مئة[(١)].

وفيها توفي المحدِّث أبو طاهر إسماعيل بن عبد الله بن عبد المحسن الأنْماطي[(٢)] ليلةَ الاثنين ثالث عشر رجب بدمشق، ودُفِنَ من الغد بمقابر الصُّوفية خارج باب النَّصر، رحمه الله.

ثم دخلت سنة عشرين وست مئة

ففيها عاد الأشرف بن العادل من مِصْر إلى الشَّام قاصداً بلاده بالشرق، والتقاه أخوه المُعَظَّم ملك الشام، وعَرَضَ عليه النزول بالقلعة، فامتنع، ونزل بجوسق أبيه، وبدتِ الوَحْشة بين الإخوة الثلاثة: الكامل والأشرف والمعظم، وأصبح الأشرف في وقت السَّحَر، فساق، ونَزَلَ ضمير، ولم يعلم المُعَظَّم برحيله، وسار يطوي البلاد إلى حَرَّان.

وكان الأشرف قد استناب أخاه شهابَ الدِّين غازي صاحب مَيَّافارقين على خِلاط لما سافر إلى مِصْر، وجَعَلَه وليَّ عهده بعد عينه، ومكَّنه في جميع بلاده،
١٣٤ فسوَّلَتْ له نَفْسُه العِصْيان، وأعانه عليه قومٌ آخرون؛ أخوه المُعَظَّم، وابن زين الدِّين صاحب إربل، والمشارقة، وقالوا: نحن من ورائك.

ولـمَّا وصل الأشرف إلى حَرَّان سار إلى سِنْجار، وكَتَب إلى أخيه شهاب الدين غازي يطلبه، فامتنع من المجيء إليه، فكتَبَ إليه: يا أخي، لا تفعل، أنتَ وليُّ عهدي، والبلاد والخزائن بحكمك، فلا تخرب بيتك بيدك، وتسمع كلام الأعداء، فوالله ما ينفعونك. فأظهر العِصْيان، فجمع الأشرفُ عساكر الشَّرْقِ وحلب، وتجهَّز للمسير إلى خِلاط، وكان صاحب حمص قد مال

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣٤٦ من هذا الجزء.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣٤٨ من هذا الجزء.